النص الكا

مغامرات

شيرلوك هولمز

19

تأليف:
آرثر كونان دويل

لُغز بلدة ريغيت



بالرسومات الأصلية

الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

بسم الله الرحمن الرحيم



ذكريات

شيرلوك هولمز

(٧)

لُغز بلدة ريغيت

نُشرت للمرة الأولى في صحيفة «ستراند» الشهرية
في عدد حزيران (يونيو) ١٨٩٣

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون

الأجيَال
للترجمة والنشر

الطبعة الأولى
٢٠٠٧

العنوان الإلكتروني للناشر
info@al-ajyal.com

موقعنا على الإنترنت
www.al-ajyal.com



آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في إسكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطرته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلاّت الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري؛ وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة قرمزية» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

كانت إحدى هذه الحوادث تتعلق برجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث أبدل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في

غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى إسكتلندا تغادر محطة كينغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.



وفي عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور دويل في حرب البُويِر (في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولقب «سير» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته

إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

وتوفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

* * *



شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل". وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة

على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨،



وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (٢٢١ب شارع بيكر) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِية القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو). وهو طبيب وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وتخرج طبيباً سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش سنة ١٨٨٠ وأمضى مدة خدمته في أفغانستان مع الجيش البريطاني، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد في أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط. وقد تزوج الدكتور واطسون في أواخر سنة ١٨٨٦، لكن دويل لم يشأ أن يعرّفنا إلى زوجته ولم يذكر لنا اسمها.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية

عام ١٨٩٣ «قتل» دويل بطله شيرلوك هولمز، لكنه واجه احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.

❊ ❊ ❊



قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة قرمزية»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، وهي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

وفي السنة التالية (١٨٩١) بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو)، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة نُشر آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة (وعنوانها «المشكلة الأخيرة») في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على «بعث» شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الخالي» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد؛ فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الخالي) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد

التبّت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كوليِرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة «عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب عائلة باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣، ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (١٩١٤/٩-١٩١٥/٥)، وهي أعظم روايات شيرلوك هولمز كما يقول النقّاد. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٩٢١/١٠-١٩٢٧/٤) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية وورومنسية ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والدراسات الغير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من المؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفيسور تشالنجر، وأشهر هذه الروايات هي «العالَم المفقود»، ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات، وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

* * *



رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ روايات هولمز وقصصَه منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطَبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأً في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ

الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسلة الجديدة «الظهور الأخير» كل من ولتر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وجلبرت هاليدي وأليك بول وجوزف سمبسون. أما السلسلة الأخيرة -وهي «قضايا شيرلوك هولمز»- فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم أ. جلبرت وهاوارد إلكوك وفرانك وايلز.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند»، أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كوليِرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردريك دورْ ستيل، ومنهم و هـ هايد وجوزف فريدرتش ورتشارد غوتشمت.

* * *

لُغز بلدة ريغيت

مضى بعض الوقت قبل أن تتحسن صحة صديقي شيرلوك هولمز من الإجهاد الذي سبّبه مجهوده الكبير في ربيع عام ١٨٨٧، وما زالت مسألة الشركة الهولندية الأندونيسية عالقة في أذهان الناس، كما أنها تتعلق بأمور سياسية واقتصادية مما يجعلها موضوعاً غير مناسب لهذه السلسلة من القصص القصيرة، وإن كانت قد أدت بطريقة غير مباشرة إلى مشكلة كبيرة معقَّدة أتاحت لصديقي فرصة إظهار قيمة سلاح جديد من الأسلحة الكثيرة التي استخدمها لمحاربة الجريمة طَوال حياته.

بالرجوع إلى ملاحظاتي أجد أنني قد تلقيت من مدينة ليون برقية في الرابع عشر من نيسان (أبريل) تخبرني أن هولمز يرقد مريضاً في فندق دولونغ، وفي خلال أربع وعشرين ساعة كنت معه في غرفته حيث اطمأننت إلى أن الأعراض التي يعاني منها ليست خطيرة، ولكن بنيته الحديدية كانت قد انهارت تحت ضغط الإجهاد في تحقيق امتد لأكثر من شهرين كان يعمل خلالهما لمدة خمس عشرة ساعة يومياً، بل لقد أكّد لي أنه استمر في عمله غير

مرة لخمسة أيام متصلة. وبسبب هذا الإجهاد فما كان لشيء، حتى الانتصار الذي حققه، أن يمنع رد الفعل الذي حدث نتيجة هذا الإجهاد الرهيب.

عُدنا معاً بعد ثلاثة أيام إلى منزلنا في شارع بيكر، ولكن كان من الواضح أن صديقي يحتاج إلى بعض التغيير ليزداد تحسناً، وقد راقت لي أيضاً فكرة أن نقضي أسبوعاً من الربيع في الريف.

كان صديقي القديم الكولونيل هايتر (الذي كان تحت رعايتي الطبية في أفغانستان) قد اشترى منزلاً بالقرب من بلدة ريغيت، وقد طلب مني مرات عديدة أن أذهب إليه في زيارة، وفي المرة الأخيرة أبدى استعداده لاستضافة هولمز إذا ذهب معي.

وقد احتاج الأمر إلى شيء من الدبلوماسية، ولكن حين عرف هولمز بأن هذا الترتيب مقتصر على العزّاب وأنه سيحظى بحريّته الكاملة وافق على خططي؛ وهكذا بعد عودتنا من ليون بأسبوع كنا في منزل الكولونيل الذي كان جندياً قديماً جاب بقاع العالم، وسرعان ما وجد أنه وهولمز يشتركان في العديد من الأمور كما توقعت.

* * *

جلسنا جميعاً بعد العَشاء في الليلة الأولى لوصولنا، حيث تمدد هولمز على الأريكة فيما كنت أنا وهايتر نتفحص المستودع الصغير لأسلحته الشرقية، وفجأة قال: بالمناسبة، سآخذ واحداً من هذه الأسلحة إلى الطابق العلوي تحسباً لأي هجوم مفاجئ.

فقلت: هجوم مفاجئ؟!

- نعم؛ لقد انتشر الذعر في هذه المنطقة مؤخراً، فيوم الإثنين الماضي اقتحم اثنان بيتَ العجوز آكْتون، وهو أحد أقطاب المقاطعة، ولم يحدث ضرر كبير ولكن ما زال اللصان طليقين.

قال هولمز وهو يثبّت عينيه على الكولونيل: ألم يُعثَر على دليل؟

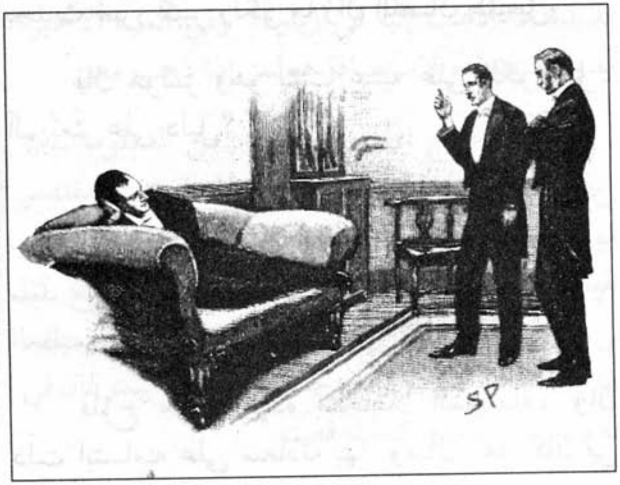
- لا شيء حتى الآن، ولكنه أمر محلي من جرائم الريف، وستجد أنها لا تستحق اهتمامك يا سيد هولمز بعد نجاحك في تلك القضية العالمية العظيمة.

فلوّح هولمز بيده متجاهلاً المجاملة، وإن دلّت ابتسامته على سعادته بها. وسأل: هل كان في البيت ما يدعو إلى الاهتمام؟

- لا أعتقد، فقد فتّش اللصان المكتبة ولم يحصلا إلا على القليل جداً نتيجة لجهودهما. كان المكان مقلوباً رأساً على عقب، فقد فُتحت الأدراج وفُتِّشت المطبوعات، وكانت النتيجة اختفاء مجلد نادر وشمعدانين ثمينين وثقل عاجي للرسائل وبارومتر صغير من خشب البلوط، بالإضافة إلى كرة من الخيوط المجدولة.

صِحت في دهشة: يا لها من تشكيلة عجيبة!

- يبدو أن الرجلين قد أخذا كل ما استطاعا الحصول عليه.



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

فزمجر هولمز من أريكته وقال: لا بد أن شرطة المقاطعة قد استنتجت شيئاً من هذا، فمن الواضح أن...

ولكنني رفعت إصبعي محذراً وقلت: أنت هنا لترتاح يا صديقي، فلا تبدأ العمل بقضية جديدة وأعصابك مرهَقة.

هزّ هولمز كتفيه ونظر إلى الكولونيل نظرة استسلام مصطنَعة، ثم تحوّل الكلام إلى مواضيع أقل خطورة.

* * *

كان من المقدَّر على أية حال أن تذهب تحذيراتي الطبية هباء في صباح اليوم التالي، فقد فرضت المشكلة نفسها بطريقة تجعل من المستحيل تجاهلها، وتحوّلت زيارتنا للريف تحولاً لم نكن نتوقعه.

كنا على مائدة الإفطار حين جاء كبير الخدم مسرعاً وقد فقد كل لباقته، وقال لاهثاً: هل سمعت الأخبار يا سيدي؟ منزل عائلة كَنِنْغهام يا سيدي!

فتجمّدت يد الكولونيل في الهواء وهو يمسك

بفنجان القهوة وصاح قائلاً: سرقة؟!

- بل قتل!

فصفّر الكولونيل وقال: يا إلهي! ومن الذي قُتل؟ الأب أم الابن؟

- لا يا سيدي، إنه ويليَم كيرْوَن السائس، اخترقت الرصاصة قلبه فمات في الحال.

- ومن قتله؟

- اللص يا سيدي، ثم جري مسرعاً وهرب دون أن يمسكه أحد، وكان قد اقتحم نافذة المخزن حين دخل ويليَم فقتله وهو يدافع عن ممتلكات سيده.

- متى كان ذلك؟

- ليلة أمس يا سيدي، في الساعة الحادية عشرة تقريباً.

قال الكولونيل وهو يجلس ثانية بهدوء ليكمل إفطاره: آه، سنذهب إليهم بعد الإفطار إذن.

ثم أضاف بعد أن ذهب كبير الخدم: إنه أمر سيّئ، فالعجوز كَنِنْغهام من الرجال البارزين هنا وهو

رجل محترم جداً، وسيؤثر فيه ما حدث لأن القتيل قضى سنوات طويلة في خدمته، كما أنه خادم جيد. من الواضح أنهم نفس الأوغاد الذين اقتحموا منزل آكتون.

قال هولمز باهتمام: وسرقوا تلك المجموعة الغريبة؟

- تماماً.

- قد يثبت أن الأمر من أبسط ما في الوجود، ولكنه أمر يثير الفضول للوهلة الأولى بالتأكيد، أليس كذلك؟ فعصابة اللصوص حين تعمل في الريف يكون من المتوقَّع أن تغيّر مكان عملياتها، لا أن تقوم باقتحام بيتين في المنطقة نفسها خلال أيام معدودة. حين تحدثتَ ليلة أمس عن رغبتك باتخاذ بعض الاحتياطيات الأمنية أذكر أنه قد خطر ببالي أن هذا المكان هو آخر الأماكن التي يمكن أن تلفت انتباه اللصوص، مما يدل على أنه لا يزال عليّ أن أتعلم الكثير.

قال الكولونيل: لعله واحد من اللصوص المحترفين المحليين، وفي هذه الحالة سيكون مقصده منزل آكتون ومنزل كننغهام بالطبع؛ فهذان

هما أكبر البيوت هنا.

- وأغناها؟

- حسناً، من المفترض أن يكونا كذلك، ولكن كانت بينهما دعوى قضائية استمرت عدة أعوام فاستنفدت مواردهما كما أظن، فقد كان العجوز آكتون يدّعي أحقيته في نصف ممتلكات كننغهام، وقد عمل المحامون على الأمر بهمّة.

قال هولمز وهو يتثاءب: لو كان المجرم محلياً فلن يكون القبض عليه صعباً. حسناً يا واطسون، أنا لا أنوي التدخل في الأمر.

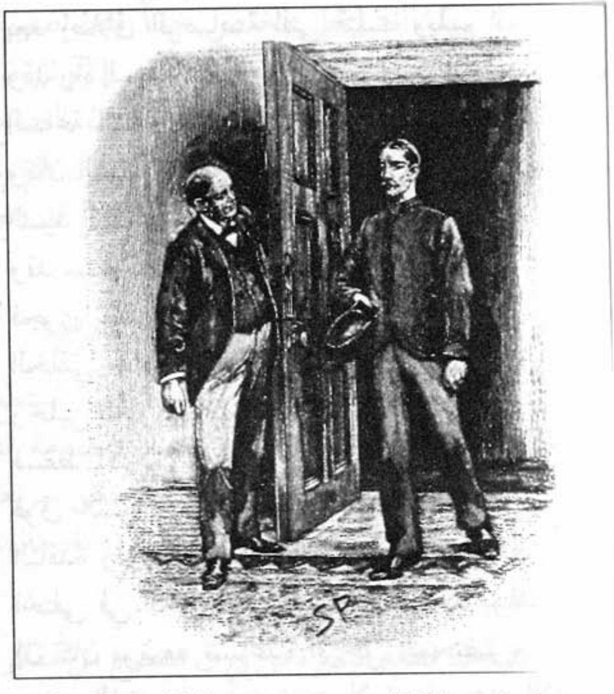
فجأة فُتح الباب وظهر كبير الخدم وهو يقول: المفتش فورستر يا سيدي.

دخل المفتش إلى الغرفة، وهو شاب يتّقد وجهه بالحماسة والذكاء، وقال: صباح الخير يا كولونيل. أرجو أن لا أكون متطفلاً، ولكننا سمعنا أن السيد شيرلوك هولمز من شارع بيكر موجود هنا.

أشار الكولونيل بيده إلى صديقي، فحيّاه المفتش قائلاً: اعتقدنا بأنك قد يهمك التدخل في الأمر يا سيد هولمز.

فقال هولمز وهو يضحك: إن الحقائق تقف ضدك يا واطسون. لقد كنا نتحدث عن هذه القضية قبل دخولك أيها المفتش، وقد تتمكن من إعطائنا بعض التفصيلات.

قال هذا ومال إلى الخلف في كرسيه بأسلوب مألوف لي، فعرفت أن الأمر مفروغ منه.



سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

قال المفتش: لم نحظَ بأي دليل في قضية آكتون، أما في هذه القضية الأخيرة فلدينا الكثير ليساعدنا، ولا شك في أنها الجماعة نفسها في القضيتين، كما أن الرجل قد شوهد.

- حقاً؟

- نعم يا سيدي، ولكنه هرب بسرعة الظبي بعد إطلاق الرصاصة التي قتلت ويليم المسكين، وقد رآه السيد كننغهام من نافذة الممر الخلفي. كانت الساعة الثانية عشرة إلا الربع حين انطلق الإنذار، وكان السيد كننغهام قد ذهب إلى النوم لتوّه، وكان السيد أليك، الابن، يدخّن غليونه مرتدياً ثوب نومه، وقد سمع كلاهما ويليم وهو يصرخ طلباً للمساعدة، فجرى السيد أليك ليستطلع الأمر، وكان الباب الخلفي مفتوحاً، وحين وصل إلى آخر الدرَج رأى رجلين يتعاركان في الخارج، ثم أطلق أحدهما طلقة فسقط الآخر، وجرى القاتل عبر الحديقة ثم قفز فوق السور. وبينما كان السيد كننغهام ينظر من النافذة رأى الرجل حين وصل إلى الطريق ولكنه اختفى في الحال، أما السيد أليك فقد توقف ليرى إن كان بوسعه مساعدة الرجل المحتضر، وبذلك هرب اللص بعيداً. ونحن لا نعرف عنه الآن إلا

أنه رجل متوسط الحجم ويرتدي ملابس قاتمة، ولكننا نقوم بتحقيقات نشطة. ولو كان المجرم غريباً فسنجده قريباً.

- وماذا كان ويليم هذا يفعل هناك؟ هل قال شيئاً قبل موته؟

- ولا كلمة واحدة. إنه يعيش في البيت الريفي مع أمه، وبما أنه رجل مخلص جداً فقد تصورنا أنه ذهب إلى المنزل وفي نيته الاطمئنان والتوثق من سلامة الوضع، فقد جعلت قضية آكتون الجميع متحفزين. لا بد أن السارق كان قد اخترق الباب للتوّ حين فاجأه ويليم، فقد وجدنا أن القفل قد فُتح عنوة.

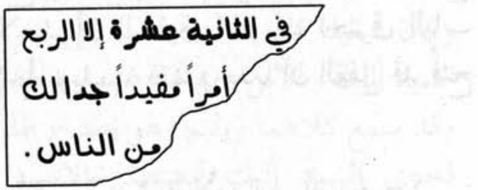
- هل قال ويليم شيئاً لأمه قبل أن يخرج؟

- إنها امرأة عجوز وصمّاء، فلم نستطع الحصول على معلومات منها، كما أن الصدمة قد أفقدتها صوابها، ولكنني فهمت أنها لم تكن سريعة الفهم أبداً. وهناك واقعة مهمة جداً على أية حال، انظر إلى هذا.

ثم أخذ قطعة صغيرة من ورق مقطوع من مفكرة وبسطها على ركبتيه وقال: لقد وجدنا هذه الورقة

بين إصبع القتيل وإبهامه، ويبدو أنها قصاصة قُطعت من ورقة أكبر، وستلاحظ أن الوقت المكتوب على الورقة هو نفسه الوقت الذي لقي فيه المسكين حتفه. ولا نعلم الحقيقة تماماً؛ فإمّا أن القاتل قد انتزع منه باقي الورقة فتمزقت أو أن ويليم قد أخذ هذا الجزء من القاتل.

أخذ هولمز قصاصة الورق، وكانت فيها كلمات قليلة مبتورة في ثلاثة سطور، وقد كانت بهذا الشكل:



أكمل المفتش قائلاً: لو افترضنا أن هذا موعد فقد يمكننا قبول نظرية تقول إن ويليم متحالف مع اللص، وربما قابله هناك أو ساعده في خلع الباب وبعد ذلك حدث خلاف بينهما... على أنني ينبغي أن أؤكد على أن ويليم مشهور بالأمانة.

قال هولمز وهو يفحص الورقة بتركيز شديد: هذا الخط مثير للاهتمام الشديد... إن الأمر أكثر

تعقيداً مما كنت أظن.

ثم غرق في تفكير عميق، بينما ابتسم المفتش حين رأى تأثير قضيته على رجل التحري اللندني المشهور.

قال هولمز بعد تفكير: إن ملاحظتك الأخيرة عن إمكان وجود اتفاق بين اللص والخادم افتراض عبقري وغير مستحيل كليّاً، وبذلك تكون هذه الورقة رسالة موجزة لترتيب موعد من شخص إلى آخر، ولكن هذا الخط يفتح...

أسند هولمز رأسه على كفيه لعدة دقائق، وعندما رفع رأسه ثانية فوجئت حين وجدت أن اللون قد عاد إلى خدّيه والبريق قد عاد إلى عينيه كما كان قبل مرضه! ثم قفز واقفاً على قدميه بكل طاقته القديمة وقال: أريد أن ألقي نظرة سريعة على تفصيلات هذه القضية فإن شيئاً فيها يجذبني بشدة، فلو سمحت لي يا كولونيل، سأتركك وصديقي واطسون لأتجوّل مع المفتش وأتحقق من صحة فكرة صغيرة أو اثنتين، وسأكون معكما من جديد بعد نصف ساعة.

* * *

مضت ساعة ونصف ساعة قبل أن يعود المفتش بمفرده، وقال: إن السيد هولمز يتجول خارجاً في الحقل ويريد أن نذهب نحن الأربعة إلى المنزل معاً.

- إلى منزل السيد كننغهام؟

- نعم يا سيدي.

- لماذا؟

هزّ المفتش كتفيه وقال: إنني لا أعرف حقاً يا سيدي، وفيما بيننا: أظن أن هولمز لم يتغلب تماماً على مرضه بعد، فهو يتصرف بغرابة شديدة كما أنه منفعل جداً.

قلت: لا أعتقد أن الأمر يستحق أن تقلق، فقد وجدت دائماً أن هناك منهجاً لجنونه.

فهمس المفتش قائلاً: قد يقول بعض الناس إن في منهجه جنوناً، ولكنه يتحرق شوقاً ليبدأ، فإذا كنتما جاهزَين فمن الأفضل أن نخرج حالاً.

وجدنا هولمز يمشي ذهاباً وإياباً وذقنه غارق على صدره وقد وضع يديه في جيبَي بنطاله، وقال: إن الأمر يزداد إثارة يا واطسون، إن زيارتك الريفية متميزة، فقد قضيت صباحاً ساحراً.

فقال الكولونيل: لقد فهمت أنك ذهبت إلى مسرح الجريمة.

- نعم، لقد قمت أنا والمفتش باستكشاف صغير معاً.

- هل توصلتما إلى شيء؟

- حسناً، لقد رأينا بعض الأمور المثيرة للاهتمام، وسأخبرك بما فعلناه ونحن نتمشى. أولاً رأينا جثة الرجل المسكين، وقد مات حقاً متأثراً بجرح رصاصة كما ورد في التقرير.

- هل كنت تشكّ في ذلك؟

- من المستحسن أن ندرس كل شيء، كما أن المعاينة لم تذهب سُدى؛ فقد قابلنا حينذاك السيد كننغهام وابنه الذي استطاع أن يشير إلى المكان المحدد الذي اخترق منه اللص سور الحديقة في أثناء هروبه، وكان لهذا الأمر أهمية كبيرة.

- طبيعي.

- وبعد ذلك ذهبنا لرؤية والدة ذلك المسكين، ولم نستطع الحصول على أية معلومات منها لأنها عجوز صمّاء.

- وما هي نتيجة تحرياتك؟

- الاقتناع بأن هذه الجريمة غريبة جداً، وقد تفيد زيارتنا هذه في جعل الأمور أقل غموضاً. أظن أننا نتفق -أيها المفتش- على أن قصاصة الورق التي كانت في يد القتيل وتحمل نفس وقت الوفاة لها أهمية عظمى.

- لا بد أنها تدل على شيء يا سيد هولمز.

- إنها تدل على شيء بالفعل، فالذي كتب تلك الملحوظة هو نفس الرجل الذي أخرج ويليم من سريره في تلك الساعة. ولكن أين بقية تلك الورقة؟

فقال المفتش: لقد فحصت الأرض بعناية أملاً في العثور عليها.

- لقد انتُزعت الورقة من يد القتيل، فلماذا يتلهف شخص ما لأخذها منه؟ لأنها تدينه. وماذا سيفعل بها؟ سيضعها في جيبه على الأرجح دون أن يلاحظ أن أحد أطراف الورقة قد بقي في يد الجثة، فلو استطعنا الحصول على هذه الورقة سنقطع شوطاً كبيراً في حل هذا اللغز.

- أجل، ولكن كيف نصل إلى جيب المجرم قبل أن نعرفه؟

- حسناً، لقد كان الأمر يستحق الدراسة. وهناك نقطة واضحة أخرى، فالرجل الذي كتبها لم يكن ليستطيع إعطاءها له وإلا لاستطاع إيصالها شفوياً بالطبع، فمن أحضر الملحوظة إذن؟ هل أُرسلت بالبريد؟

فقال المفتش: لقد قمت بالتحريات وعرفت أن ويليم تلقى رسالة في البريد بعد ظهر يوم أمس، وقد قام بالتخلص من الظرف.

صاح هولمز وهو يربّت على ظهر المفتش قائلاً: ممتاز، لقد قابلتَ رجل البريد إذن؟ إن العمل معك ممتع حقاً. حسناً، ها هو السور، ولو أتيت معي يا كولونيل فسوف أريك موقع الجريمة.

مشينا بجوار المنزل الريفي الذي كان القتيل يقيم فيه، ثم صعدنا في طريق تحدّه أشجار الصنوبر على الجانبين حتى وصلنا إلى منزل على طراز عصر الملكة آن القديم الجميل، حيث قادنا هولمز والمفتش حوله حتى وصلنا إلى البوابة الجانبية التي تفصلها حديقة ممتدة عن السور الذي يحدد الطريق،

وكان هناك شرطي يقف عند باب المطبخ.

قال هولمز: افتح الباب أيها الشرطي. حسناً، لقد كانت تلك هي الدرجات التي وقف عليها السيد كننغهام الشاب ورأى الرجلين حين تعاركا في نفس المكان الذي نقف فيه، وكان السيد كننغهام الأب يطلّ من تلك النافذة الثانية من اليسار ورأى الرجل يهرب عن يسار تلك الأشجار، وبعد ذلك جرى السيد أليك وانحنى بجوار القتيل. إن الأرض صلبة جداً كما ترى ولذلك لا توجد أية آثار أقدام لترشدنا.

وفيما كان يتحدث جاء رجلان عبر ممر الحديقة من وراء ركن المنزل، أحدهما كبير السن ذو وجه قوي الملامح وعينين ثاقبتين، أما الآخر فشاب جذاب تناقض تعبيراته المشرقة الباسمة وملابسه المزخرفة الأمرَ الذي جئنا من أجله تناقضاً غريباً.

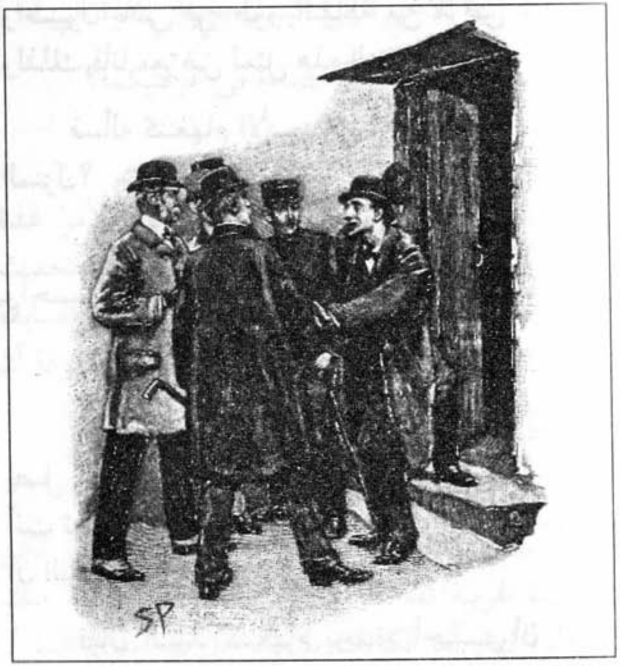
قال لهولمز: أما زلت تعمل على الأمر إذن؟ لقد اعتقدت أنكم أيها اللندنيون لا تخطئون أبداً، ولكن لا يبدو عليك أنك سريع جداً.

قال هولمز وهو يتقبل الأمر بروح طيبة: آه،

يجب أن تعطينا بعض الوقت.

فقال الشاب أليك كوننجهام: ستحتاج إليه، فلا أرى أن لديكم أي دليل على الإطلاق.

فأجابه المفتش قائلاً: يوجد واحد فقط، ونحن نظن أننا لو استطعنا العثور على... يا إلهي، سيد هولمز! ما الأمر؟



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

كسا وجهَ صديقي فجأة تعبيرٌ فظيع وغربت عيناه وتغضّنت ملامحه من الألم، وبصرخة مكتومة سقط على وجهه على أرض الحديقة، فأصابنا الرعب من فجائية النوبة وشدتها فحملناه إلى المطبخ حيث استلقى على كرسي كبير وهو يتنفس بصعوبة لعدة دقائق، وأخيراً نهض تكسو وجهَه ملامح الخجل والاعتذار وشرح قائلاً: سيخبركم الدكتور واطسون بأنني في طور النقاهة من مرض شديد، ولذلك فأنا معرّض لمثل هذه النوبات.

فسأله كننغهام الأب: هل أوصلكم بعربتي إلى المنزل؟

- بما أنني هنا فأودّ التأكد من نقطة واحدة، وأحسب أننا نستطيع التحقق من صحتها بسهولة.

- ما هي؟

- لقد خطر ببالي أن ذلك المسكين ويليم لم يصل إلى المنزل قبل دخول اللص بل بعده. لكن أنت تعتبر أن اللص لم يدخل مطلقاً، على الرغم من أن الباب قد خُلع.

فقال السيد كننغهام بحدة: أحسب أن الأمر واضح تماماً؛ فابني أليك لم يكن قد ذهب إلى

النوم بعد، وكان سيسمع صوت أي شخص يتحرك في المنزل بلا شك.

سأل هولمز أليك: أين كنت تجلس؟

- كنت أدخن في غرفة ملابسي.

- أين هي نافذتها؟

- إنها الأخيرة إلى اليسار بجوار نافذة أبي.

- وكانت الأنوار مضاءة في غرفتيكما؟

- بلا شك.

فقال هولمز وهو يبتسم: في هذا الأمر عدة نقاط بالغة الغرابة؛ فمن غير المألوف أن تحدث سرقة يقتحم فيها لصٌّ يمتلك بعض الخبرة السابقة منزلَ أحدهم في وقت يمكنه رؤية الأنوار ومعرفة أن اثنين من العائلة ما زالا مستيقظين.

- لا بد أنه لا خبرة لديه.

فقال الشاب كننغهام: حسناً، لو لم تكن القضية غريبة لما كنا مجبرين على أن نطلب منك تفسيراً لها. أما فكرتك بأن الرجل قد سرق المنزل قبل أن يداهمه ويليم فأنا أظن أنها فكرة غير معقولة.

ألم نكن سنجد المكان غير منظم ونفتقد الأشياء التي سرقها؟

- الأمر يعتمد على طبيعة الأشياء، فلا بدّ أن تتذكر أننا نتعامل مع شخص غريب الأطوار جداً، ويبدو أنه يعمل بطريقة خاصة به. لتنظر مثلاً إلى مجموعة الأشياء الغريبة التي أخذها من منزل آكتون، ماذا كانت؟ كرة من الخيط وثقالة للخطابات... ولا أدري ماذا أخذ أيضاً.

فقال كننغهام الأب: حسناً، إننا تحت تصرفك يا سيد هولمز، فأي شيء ستقترحه أنت أو المفتش سنقوم بتنفيذه بكل تأكيد.

قال هولمز: أولاً أريدك أن تعرض مكافأة، منك شخصياً؛ وذلك لأن الموظفين سيستغرقون بعض الوقت حتى يتفقوا على مبلغ المكافأة، ومثل هذه الأمور يجب أن تتم بسرعة. لقد دوّنت الصيغة هنا وأرجو منك توقيعها إذا لم يكن لديك مانع، خمسون جنيهاً ستكون كافية على ما أظن.

فقال كننغهام الأب وهو يأخذ من هولمز الورقة والقلم: أنا على استعداد لدفع خمسمئة جنيه.

ثم أضاف قائلاً عندما نظر إلى الورقة: ولكن

فيها خطأ صغيراً على أية حال.

- لقد كتبتها بسرعة.

- أترى؟ لقد بدأتَ قائلاً: «حيث إنه في نحو الواحدة إلا الربع من صباح يوم الثلاثاء تمّت محاولة اعتداء، إلخ»، بينما حدث الأمر في الساعة الثانية عشرة في حقيقة الأمر.

انزعجت جداً من هذا الخطأ لأنني أعرف المرارة التي سيشعر بها هولمز تجاه مثل هذه الهفوة، فإن من صفاته المميّزة أن يكون دقيقاً فيما يتعلق بالوقائع، ولكن مرضه الأخير قد أثّر فيه فيما يبدو، وهذه الحادثة الصغيرة كانت كافية لأعرف أنه لم يَعُد إلى طبيعته بعد.

بدا على هولمز الحرج للحظة بينما رفع المفتش حاجبيه وانفجر أليك كننغهام بالضحك، أما السيد المحترم الكبير فقد صحّح الخطأ ثم ردّ الورقة لهولمز قائلاً: اطبعها بأقصى سرعة ممكنة، فأنا أظن أن فكرتك ممتازة.

وضع هولمز الورقة بعناية في مفكرته الصغيرة ثم قال: والآن سيكون من الجيد أن نفحص المنزل

معاً لنتأكد من أن هذا اللص العصبي لم يأخذ شيئاً معه في النهاية.

فحص هولمز الباب الذي كان قد خُلِع قبل دخولنا، وكان واضحاً أن القفل قد تم خلعه بسكين قوي أو بعتلة، فقد استطعنا رؤية علامات في المكان الذي أُدخلت فيه الأداة عنوة.

سأل هولمز قائلاً: ألا تستخدمون المزاليج؟

- لم نجد أنها ضرورية أبداً.

- هل تحتفظون بكلب؟

- نعم، لكنه مربوط في الناحية الأخرى من المنزل.

- متى يذهب الخدم إلى النوم؟

- في نحو العاشرة.

- هل أفهم من ذلك أن ويليم ينام في تلك الساعة أيضاً؟

- نعم.

- من الغريب إذن أنه قد بقي مستيقظاً في تلك الليلة بالذات! والآن سيسعدني جداً أن تتكرم

وتأخذنا في جولة لنرى المنزل يا سيد كننغهام.

كان في المنزل ممرّ له أرضية من الحجر تتفرع منه المطابخ وفي نهايته دَرَج خشبي يؤدي مباشرة إلى الطابق الأول من المنزل وينتهي عند المهبط المقابل لدرَج أكثر زخرفة يصعد من القاعة الأمامية، وعلى هذا الممر تفتح غرفة الاستقبال وعدة غرف أخرى للنوم من بينها غرفة السيد كننغهام وابنه.

مشى هولمز ببطء وهو يلاحظ بعناية أسلوب بناء المنزل، وأدركت -من ملاحظة تعبيرات وجهه- أنه قد وجد دليلاً يتتبّعه، ولكني لم أستطع تخيل الاتجاه الذي تقود إليه استدلالاته.

قال السيد كننغهام بنفاد صبر: يا سيدي العزيز، إن هذا الأمر غير ضروري بالتأكيد، فها هي غرفتي أعلى الدرَج وتليها غرفة ابني، وسأترك لك أن تحكم إن كان اللص يستطيع الدخول دون أن يزعجنا.

وقال الابن بابتسامة خبيثة: أظن أنك يجب أن تستسلم وتحاول العثور على دليل جديد.

- أرجو أن تسايرني قليلاً، فأنا أريد معرفة القدر الذي تكشفه نوافذ الغرف من المدخل، هل

تكشفه كله أم تكشف جزءاً منه فقط. هذه هي غرفة ابنك كما فهمت؟

ثم دفع الباب ليفتحه قائلاً: وكما أظن فهذه هذه هي غرفة الملابس التي كان يجلس فيها ويدخن حين سمعتم الإنذار. على أي مكان تطل هذه الغرفة؟

عبر هولمز الغرفة، ثم فتح الباب وألقى نظرة سريعة على الغرفة الأخرى، فقال السيد كننغهام بشكل لاذع: أتمنى أن تكون راضياً الآن.

- شكراً لك، أظن أنني رأيت كل ما أريد رؤيته.

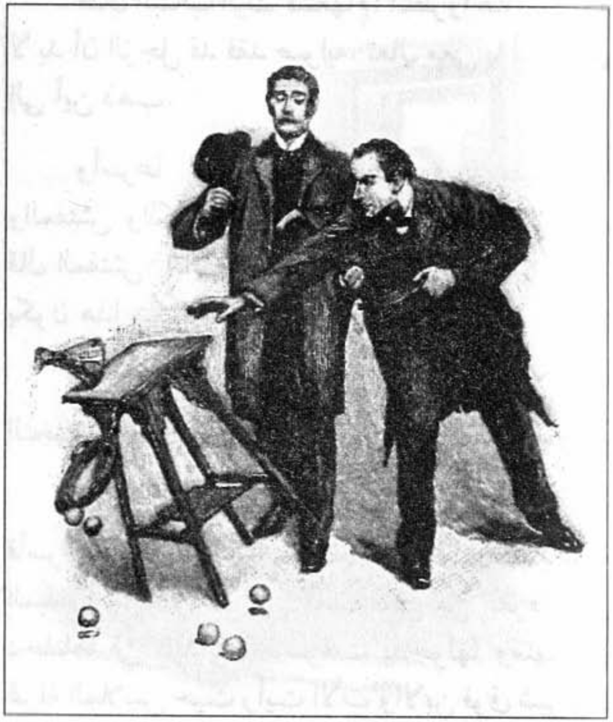
- يمكننا الذهاب إلى غرفتي أيضاً إن كان لذلك لضرورة.

- أرجو ذلك إذا لم يكن في الأمر مشقة.

فهزّ السيد كننغهام كتفيه وقادنا إلى غرفته التي كانت مفروشة ببساطة كأي غرفة عادية. وحين كنا نمشي عبرها في اتجاه النافذة تأخر هولمز حتى صرنا أنا وهو في آخر المجموعة. ورأيت بجوار أسفل السرير طاولة مرتفعة صغيرة عليها طبق فيه برتقال وإبريق ماء، ولدهشتي الشديدة انحنى هولمز أمامي

وأوقع الأشياء كلها متعمداً، فتحطم الزجاج وتناثر وتدحرجت البرتقالات في كل اتجاه.

هتف هولمز بصوت مسموع: ماذا فعلتَ الآن يا واطسون؟ انظر إلى الفوضى التي أحدثتَها على السجّادة!



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

ففهمت أن صديقي يريدني -لسبب ما- أن أتحمل اللوم على ما حدث، فانحنيت ببعض الارتباك لألتقط البرتقال، وصنع الآخرون مثلي وأعادوا الصينية إلى مكانها، ثم سأل المفتش بدهشة قائلاً: إلى أين ذهب هولمز؟ لقد اختفى هولمز!

فقال الشاب أليك كننغهام: انتظروا هنا للحظة، لا بد أن الرجل قد فقد صوابه. تعال معي يا أبي لنرى إلى أين ذهب.

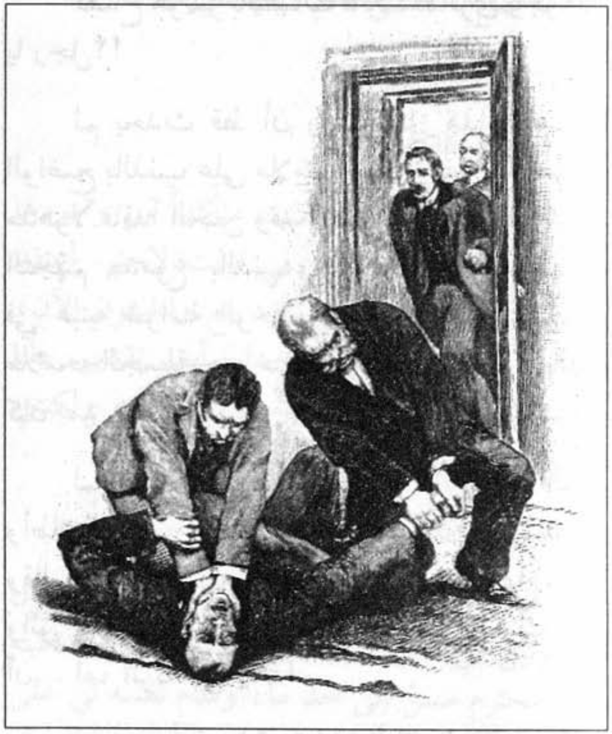
وأسرعا إلى خارج الغرفة فيما بقيت أنا والمفتش والكولونيل يحدّق بعضنا إلى بعض، ثم قال المفتش: أنا مضطر إلى موافقة السيد أليك، فقد يكون هذا بتأثير المرض، ولكن يبدو لي أن...

وفجأة قُوطعت جملته بصرخة مفاجئة: النجدة، النجدة... أنقذوني!

أدركت بانفعال أن هذا هو صوت صديقي، فأسرعت بجنون خارج الغرفة إلى مصدر الصيحات المبحوحة المترددة التي كانت تأتي من الغرفة التي دخلناها في البداية، فأسرعت بدخولها ومنها إلى غرفة الملابس حيث رأيت الأب والابن فوق شيرلوك هولمز المنبطح أرضاً، وكان الابن يضغط بيديه على

رقبته بينما بدا العجوز وكأنه يلوي أحد معصميه، وفي لحظة قمنا نحن الثلاثة بإبعادهما عنه.

وقف هولمز متمايلاً وهو شاحب جداً وقد بدا عليه الإرهاق الشديد ثم شهق قائلاً: اقبض على هؤلاء الرجال أيها المفتش.



Sydney Paget 1893 رسم سدني باجيت ١٨٩٣

- بأية تهمة؟

- تهمة قتل السائس ويليم كيرْوَن.

فحدق إليه المفتش بذهول، ثم قال أخيراً: آه! هيا يا سيد هولمز، أنا واثق أنك لا تعني حقاً...

فصاح هولمز باقتضاب قائلاً: ألا ترى وجوههم يا رجل؟!

لم يحدث قط أن رأيت مثل هذا الاعتراف الواضح بالذنب على ملامح إنسان، فقد بدا العجوز مذهولاً فاقداً الحس وقد اكتسى وجهه بتعبير شديد التجهّم مدموغ بالذنب، أما الابن فقد ظهرت في عينيه شراسة الوحش البري الخطير وتشوّهت ملامحه الجميلة حين سقط قناع الزهو والمرح الذي كان يميز شخصيته.

لم يَقُل المفتش شيئاً، ولكنه اتجه ناحية الباب وأطلق صفارته فجاءه اثنان من الشرطة تلبية لندائه، وقال: ليس لدي أي بديل آخر يا سيد كننغهام، وأنا واثق من أن هذا الأمر خطأ سخيف ولكنك ترى أن... آه، اتركه من يدك!

ثم ضرب ضربة قوية بيده فأوقع المسدّس الذي

كان الشاب يعدّه للإطلاق. سقط المسدس مقرقعاً على الأرض فوضع هولمز قدمه عليه بهدوء وقال للمفتش: احتفظ بهذا فسوف يفيدك في المحكمة، ولكن هذه هي ما نريده حقاً.

ورفع هولمز قطعة صغيرة من الورق المجعد، وعندها صاح المفتش قائلاً: بقية الورقة!

- تماماً.

- وأين كانت؟

- في المكان الذي كنت متأكداً من وجودها فيه، وسأوضح لك الأمر في وقت لاحق. أعتقد يا كولونيل أنك يجب أن تعود مع واطسون الآن، وسأكون معكم خلال ساعة على أبعد تقدير، فأنا والمفتش يجب أن نتحدث مع السجينين، ولكنني سأكون معكما بالتأكيد في وقت الغداء.

* * *

حافظ هولمز على وعده فانضمّ إلينا في منزل الكولونيل في نحو الساعة الواحدة، وكان بصحبته رجل محترم مسنّ إلى حد ما، وقدم نفسه لي على أنه السيد آكتون الذي كان منزله موقعاً لعملية السطو

الأولى. قال هولمز: أردت أن يكون السيد آكتون حاضراً وأنا أوضح لكم هذا الأمر الصغير، لأن من الطبيعي أن تثير هذه التفصيلات اهتمامه. أخشى يا عزيزي الكولونيل أن تكون قد ندمت على استضافة شخص مثلي ينبئ ظهوره بالعواصف!

فأجاب الكولونيل بودّ: على العكس، بل إنني أعتبره امتيازاً كبيراً أن يُسمَح لي بدراسة أساليب عملك، وأعترف أنك قد تفوّقت على كل توقعاتي وأنني غير قادر تماماً على تفسير ما حقّقته، فلم أرَ أثراً لأي دليل.

- أخشى أن تفسيري قد يخيّب أملك، ولكن من عادتي دائماً أن لا أخفي شيئاً من أساليب عملي عن واطسون أو عن أي أحد يثير الأمرُ اهتمامَه المجرَّد، ولكني سأطلب أولاً كوباً من الشاي لأنني ما زلت متأثراً بالضرب الذي تعرضت له في غرفة الملابس، وصحّتي لم تعد على ما يُرام مؤخراً.

- آمل أنك لم تُصَب بمزيد من النوبات العصبية؟

فضحك هولمز بعمق وقال: سنتحدث في هذا الأمر حين يأتي دوره، فسأقصّ عليكم القصة

بالترتيب لأظهر لكم النقاط المختلفة التي أرشدتني إلى القرار، وأرجو منك مقاطعتي لو رأيت أن أياً من هذه الاستدلالات ليست بالوضوح الكافي.

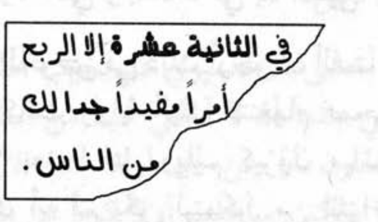
إن من الأهمية القصوى في فن الاستنتاج أن تتمكن من تمييز الحقائق الجوهرية الحيوية من تلك التي حدثت بالمصادفة، فهذه الأخيرة تُشتّتُ انتباهك وطاقتك بدلاً من التركيز فيما هو مهم. والآن أكرر أنني لم يساورني أدنى شك في أن مفتاح الحل في هذه القضية كان يكمن في البحث عن قصاصة الورقة التي وجدناها في يد القتيل.

وقبل الخوض في ذلك أرجو أن ألفت انتباهك إلى أنه لو كانت رواية أليك كننغهام صحيحة بأن المهاجم فرّ بعدما قتل ويليم كيرْوَن مباشرة فمن الواضح إذن أنه لم يكن ليتمكن من انتزاع الورقة من يد القتيل، وإذا لم يكن هو مَن فعل ذلك فلا بدّ أن أليك نفسه هو مَن انتزعها؛ فالأب عندما نزل إلى مكان الجريمة كان قد وصل إلى المكان عدد من الخدم. الأمر هنا بسيط ولكن المفتش أغفله لأنه بدأ التحقيق على أساس افتراض أن قطبَي المقاطعة هذين ليس لهما علاقة بالأمر. وبهذه المناسبة يجب أن أؤكّد على حقيقة مهمة جداً؛ لا ينبغي أن يضع

أي منا في عقله أحكاماً مسبَقة، بل ينبغي أن نتبع الحقيقة أينما تأخذنا دون مقاومة.

وبذلك فقد وجدت في المرحلة الأولى من التحقيق أنني أنظر بارتياب إلى الدور الذي لعبه أليك كننغهام. وهكذا قمت بإجراء فحص دقيق جداً لطرف الورقة التي قدّمها لنا المفتش فظهر لي على الفور أنها تشكل جزءاً من وثيقة مهمة جداً. ها هي... ألا تلاحظون أمراً ذا دلالة خاصة؟

قال الكولونيل: إن لها شكلاً غريباً.



فصاح هولمز: يا سيدي العزيز، لا يوجد أدنى شك في أنها قد كُتبت بواسطة شخصين تبادلا كتابة الكلمات، فحين ألفت انتباهكم إلى حدة الحروف في بعض الكلمات وأطلب منكم مقارنتها بنفس الحروف في كلمات أخرى ستكتشفون هذه الحقيقة على الفور. إن تحليلاً بسيطاً جداً لهذه الكلمات سيمكّنكم من القول بثقة تامة إن بعضها مكتوب بيد

قوية وبعضها الآخر بيد أضعف.

صاح الكولونيل: يا إلهي، الأمر واضح وضوح الشمس! ولماذا يكتب شخصان خطاباً بهذه الطريقة؟

- من الواضح أن الأمر كريه وأن أحد الرجلين لم يثق بالآخر فقرر أن يكون نصيبهما في كل ما يحدث متساوياً، ومن الواضح أن صاحب الخط الأقوى هو الزعيم.

- كيف عرفت ذلك؟

- يمكننا استخلاص ذلك من مجرد مقارنة خصائص خط أحدهما بخط الآخر. ولكن لدينا أسباباً أخرى أكثر تأكيداً من ذلك ترجّح افتراضنا، فلو فحصتم قصاصة الورق باهتمام فسوف تستنتجون أن الرجل ذا الخط الحادّ قد كتب كل كلماته أولاً وترك فراغات ليملأها الآخر، فلم تكن الفراغات كافية دائماً، ولذلك يمكنكم رؤية أن الرجل الثاني قد اضطر إلى ضغط إحدى الكلمات لتناسب الفراغ.

صاح السيد آكتون: ممتاز!

قال هولمز: والآن وصلنا إلى نقطة مهمة؛ فقد لا تدركون حقيقة أن استنتاج سن الشخص من

خطّه قد أثبت الخبراء دقته الكبيرة، وفي القضايا العادية يستطيع المرء معرفة عمر شخص ما بدقة مقبولة، أقول في القضايا العادية لأن الصحة المعتلّة والضعف الجسدي قد ينتج عنهما بعض علامات كبر العمر حتى لو كان المريض شاباً. وفي هذه القضية حين تنظر إلى الخط الحاد الجريء لأحد الرجلين وإلى الشكل المكسور الواهن للخط الآخر (وإن كان ما زال يحتفظ بوضوحه بالرغم من أن بعض الأحرف بدأت تفقد شكلها) نستطيع أن نقول إن أحدهما شاب والآخر متقدم بالعمر دون أن يكون عاجزاً تماماً.

فصاح السيد آكتون ثانية: ممتاز!

- ثمة نقطة إضافية على أية حال، وهي دقيقة ولها أهمية عظيمة؛ إن بين الخطّين صفات مشتركة، فهما لرجلين تجمعهما صلة قرابة. وقد يكون هذا التشابه واضحاً لكم في بعض الحروف، أما بالنسبة لي فأجد العديد من النقاط الصغيرة التي تشير إلى هذا التشابه، فليس لديّ أدنى شك في أنه يمكننا الاستدلال على أسلوب العائلة الخاص في الكتابة. وأنا أقدم لكم الآن النتائج الرئيسية فقط لفحص الورقة، وإن كنت أجد فيها ثلاثة وعشرين استدلالاً

آخر قد تثير اهتمام الخبراء أكثر مما تهمكم، وكل هذه الاستدلالات تعمّق في عقلي فكرة أن الأب كننغهام والابن قد كتبا هذا الخطاب.

كانت خطوتي التالية -بعد أن وصلت إلى هذا القَدْر من الاستنتاج- هي أن أدرس تفصيلات الجريمة لأرى إن كانت ستساعدنا، فذهبت إلى المنزل مع المفتش وفحصت القتيل ورأيت كل ما أمكنني رؤيته. كنت متأكداً تماماً من أن جرح القتيل



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

قد نشأ من إطلاق النار عليه من مسافة ثلاثة أمتار على الأقل لأنني لم أجد أي أثر أسود للبارود على ثيابه، إذن فلا بد أن أليك كننغهام كذب حين قال إن الرجلين كانا يتعاركان عندما انطلقت الرصاصة. ومرة أخرى اتفق الأب مع الابن على المكان الذي هرب منه اللص إلى الطريق، وتصادف أن في تلك البقعة خندقاً عريضاً ذا قاع رطب، وبما أن أية آثار أقدام لا توجد حول هذا الخندق فقد تأكدت أن الأب والابن كانا كاذبَين، ليس هذا فقط بل تأكدت أيضاً أن أي غريب لم يكن في المكان أصلاً.

والآن صار عليّ البحث عن دافع لهذه الجريمة، ولكي أصِل إلى ذلك سعيت أولاً إلى معرفة سبب السرقة الأولى في منزل السيد آكتون. وكما فهمت من الكولونيل فقد كانت بينكما يا سيد آكتون (أنت وعائلة كننغهام) قضية مستمرة منذ سنوات، وبالطبع خطر على بالي في الحال أن يكونا قد اقتحما المكتبة وهما ينويان الحصول على وثيقة ذات أهمية للقضية.

فقال السيد آكتون: هكذا تماماً، لا شك في نواياهما، فأنا أملك الحق في نصف مزرعة كننغهام، ولو استطاعا العثور على ورقة بعينها (كانت محفوظة

لحسن الحظ في خزنة المحامي الذي يمثّلني) لكانا استطاعا إنهاء القضية.

فقال هولمز مبتسماً: ها قد فهمت. وبالطبع كانت محاولة خطيرة ومتهوّرة يمكنني أن ألمح فيها تأثير الشاب أليك كننغهام. وعندما لم يجدا شيئاً حاولا تحويل الأمر إلى جريمة سرقة عادية فأخذا أي شيء استطاعا الوصول إليه. كان كل ذلك واضحاً بما فيه الكفاية، ولكن بقيَت عدة أمور يكتنفها الغموض، وكان أكثر ما أردته هو الحصول على الجزء المفقود من الرسالة القصيرة، وكنت متأكداً أن أليك قد انتزعها من يد القتيل كما كنت متأكداً -إلى حد كبير- أنه قد وضعها في جيب ثياب نومه. وفي أي مكان غير هذا يمكن أن يضعها؟ والسؤال الوحيد كان: هل لا تزال الورقة هناك؟ كان الأمر يستحق المحاولة للتأكد، ولهذا السبب ذهبنا كلّنا إلى المنزل.

وانضمّ إلينا الأب والابن -كما تتذكرون بلا شك- ونحن خارجَ باب المطبخ، وقد كان من المهم جداً أن لا نذكّرهما بتلك الورقة وإلا لَسَعيا إلى إتلافها على الفور، وكان المفتش على وشك إخبارهما بمدى الأهمية التي نعلّقها على الورقة

عندما سقطت في تلك النوبة، وبذلك غيّرت موضوع المحادثة.

فصاح الكولونيل وهو يضحك: أيعني هذا أن كل ذلك التعاطف ضاع هباءً وأن نوبتك كانت مزيَّفة؟

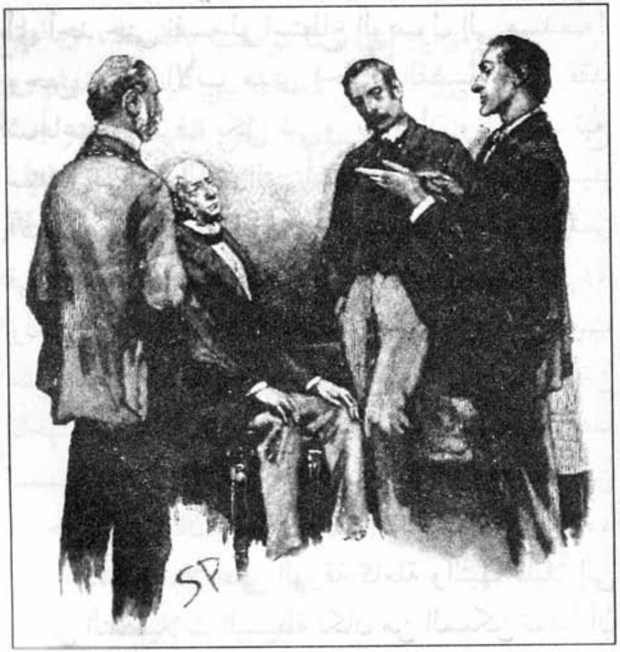
فصحت وأنا أنظر بذهول إلى هذا الرجل الذي يحيّرني دائماً ببعض الجوانب الجديدة لدهائه: أؤكد لك -من وجهة النظر الطبية- أنك قد قمت بعمل جدير بالإعجاب!

فقال: إنه فن نافع! وعندما «تعافيت» تمكّنت من حمل العجوز كننغهام على كتابة الرقم اثني عشر بحيلة فيها بعض الإبداع، وبذلك تمكنت من مقارنة خطه بالخط الموجود في الورقة.

علقت قائلاً: آه، كم كنت غبياً!

فقال هولمز ضاحكاً: لقد أدركت أنك كنت تشعر بالأسى بسبب ضعفي، وكنت آسفاً على الألم الذي سببته لك! وبعد أن صعدنا إلى الطابق العلوي معاً ثم دخلنا الغرفة رأيت ثوب النوم معلقاً خلف الباب، فخطّطت لقلب الطاولة حتى أشغل انتباههم للحظة ثم تسللت عائداً إلى الغرفة لأفتش الجيوب،

وحصلت على الورقة التي كانت في أحد الجيوب كما توقعت في نفس اللحظة التي انقضّ عليّ فيها الاثنان، وكانا سيقتلانني في ذلك الوقت لولا مساعدتكم اللطيفة السريعة! آه، رغم مرور بعض الوقت فإنني ما زلت أشعر بقبضة الشاب على رقبتي حتى الآن، وأبوه يحاول أن يلوي معصمي ليحصل على الورقة من يدي؛ فقد أدركا أنني بتّ أعرف



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

كل شيء عن الأمر. وكان هذا التحول المفاجئ من الإحساس بالأمان التام إلى الخوف المطلق هو ما دفعهما إلى الوحشية والاستماتة في الدفاع عن نفسيهما.

تحدثت قليلاً مع كننغهام الأب لأعرف دوافع الجريمة، وقد كان مذعناً بما فيه الكفاية أما ابنه فكان الشيطان بعينه، كان مستعداً لأن يفجّر دماغ أي أحد حتى نفسه لو استطاع الوصول إلى مسدسه! وحين عرف الأب مدى إحكام القضية ضده فقد شجاعته واعترف بكل شيء. يبدو أن ويليم قد تبع سيّديه سراً في الليلة التي أغارا فيها على منزل السيد آكتون، وبذلك تمكّن من السيطرة عليهما واستمرّ في تهديدهما بكشف الأمر ليُخضعهما لابتزازه، ولكن السيد أليك كان شخصاً خطيراً لا يمكن لعب مثل هذه الألعاب معه، وقد كانت ضربة عبقرية من ناحيته أن يفكر في استغلال الذعر الذي هزّ الريف بسبب عملية السطو ليتخلص بشكل معقول من الرجل الذي كان يخافه، فنصبا لويليم الفخ وقتلاه، ولو أنهما حصلا على الورقة كاملة وانتبها قليلاً إلى بعض التفصيلات البسيطة لكان من الممكن تماماً أن لا يشكّ بهما أحد.

قلت: والرسالة القصيرة؟

ضمّ هولمز قسمَي الورقة معاً فقرأنا الرسالة كاملة، وهذا هو شكلها:

> **إذا جئت** إلى البوابة الشرقية في **الثانية عشرة** إلا الربع فسوف **تشاهد ما** يسرّك، **سيكون** أمراً مفيداً **جداً لك** ولآني موريسون، **ولكن لا تخبر بهذا** أحداً من **الناس**.

ثم قال: إنها كما توقعت بالضبط، وبالطبع لا نعرف -بعدُ- ما هي العلاقة بين أليك كننغهام وويليم كيرْوَن وآني موريسون، لكن النتائج تُظهر أن الفخّ قد نُصب بمهارة وحقق النتيجة التي أراداها. وأنا متأكد -يا واطسون- أنك مسرور بظهور آثار للوراثة في الحروف التي كتبها الأب وابنه، وهذا يظهر في بعض الحروف كالباء والجيم، كما أن غياب بعض النقاط عن الحروف من الصفات المميزة لخط العجوز. حسناً، يبدو لي أن فترة الراحة الهادفة التي قضيناها في الريف كانت ناجحة تماماً، وسأعود غداً إلى شارع بيكر وأنا في منتهى النشاط.

❊ ❊ ❊

-تمت-

19

The Adventures of
Sherlock Holmes



The Adventure of
the Reigate Squire



مغامرات
شيرلوك هولمز
تأليف: آرثر كونان دويل

الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

ISBN 2-1957-3373-5
9782195733739